مكتبة الإسكندرية وجامعة القاهرة

◄ صلاح سالم

أخيرا تخلص د. مصطفى الفقى من آفة الطابق المسحور، وحظى بشرف إدارة مكتبة الإسكندرية الذى يستحقه، فهو مثقف كبير، ودبلوماسى بارع، فضلا عن دماثة أخلاقه ورحابة شخصيته الإنسانية، وجميعها مؤهلات ترشحه للنجاح فى حمل رسالة المكتبة، التى كان حلم بها العالم المصرى الراحل د. مصطفى العبادى، وأدارها د. إسماعيل سراج الدين باقتدار جعل منها منارة ثقافية تشع من العاصمة الثانية لمصر، وهو إشعاع نتمنى ازدياده تحت قيادة د. الفقى. غير أن الوقت الذى يشهد حضور قيادة كبيرة لإدارة المكتبة المصرية الأم، هو نفسه الذى يشهد غياب قيادة فذة مثل د. جابر جاد نصار عن جامعة القاهرة، الجامعة الأم، التى لعبت الدور الأبرز فى تشكيل العقل المصرى، وتجسيد أحلام نخبته الصاعدة مطلع القرن العشرين فى جامعة (مدنية) تنهض بالوعى العلمى وترسخ الثقافة المدنية، وتقود مسارى التطور الاجتماعى والتحرر السياسي. إنها الجامعة التى قادها أحمد لطفى السيد الليبرالى المصرى الأول، الذى ترجم كتاب زالسياسةس لأرسطو، كى يهديه إليها فى عيدها الخمسين، والتى شهدت نبوغ عميد الأدب العربى طه حسين، وريادة تلميذته سهير القلماوى، ثم الكثيرين فى شتى حقول المعرفة، حتى استقطبت عقول وقلوب النخب العربية، طيلة عقود كانت فيها قاطرة الثقافة المصرية. جرت مياه كثيرة، رحلت أجيال، وانطفأ دور الجامعة فى مصر مثلما انطفأ دور مصر العربى، وأتى زمن خرجت فيه الجامعة من تصنيف المؤسسات المعتبرة على مؤشر الأفضلية الأكاديمية. وبدلا من احتضانها للفن الطليعي، ورعايتها للذوق العام صارت جامعة القاهرة موئلا للتدين الرجعى، والنقاب البدوى. وفى العقد الأول لهذا القرن بدا أن الفساد والبيروقراطية قد أحاطا بها، وما إن هبت رياح ٣٠ يونيو حتى أمسك التطرف بخناقها، فصارت مسرحا لحراك طلابى إخوانى، يفجر الحرائق ويوزع الدمار فى أرجائها.

عندما تسلم د. نصار، قيادة الجامعة أول أغسطس ٢٠١٣م، بعد انتخابات شهدت فوزه الساحق الذى أدركنا بعد ذلك كم هو مستحق، كان من الصعب أن يشق طريقه إلى مكتبه، فالجامعة محاصرة من خارجها بمعتصمى النهضة، ومن داخلها بمنتسبى الإخواني. غير أن الرجل قبل التحدى، واختار بعناد مواجهة التطرف بالتنوير، والفساد بالحزم، والبيروقراطية بالخيال، فأعاد النشاط الثقافى إلى الجامعة، وضمنه النشاط الفنى الذى كان توقف لسنوات أو توارى إلى حد الخجل.. ندوة ثقافية تتلوها مسرحية، مهرجان فنى تليه حفلة غنائية، تبدت جميعها كأشعة شمس بددت ظلام التطرف، وأعادت للجامعة ألق روحها، قبل أن يبدأ الرجل فى استعادة حيوية الجسد بإصلاح مالى شاهق نقلها من موقع المدين العاجز عن الوفاء بالتزاماته إلى موقع الوفرة، حتى بلغ رصيدها حسب تصريحه لصحيفة شهيرة (١,٨٢٥ مليار جنيه) وهو إنجاز هائل خصوصا وقد تم بإتباع سياسات مالية رشيقة تسد أبواب الفساد. ثم كان القرار الشاهق الذى اتخذه بمنع المنقبات من التدريس للطلاب من خلف هذا الزى، وهو قرار تنويرى بامتياز، فالنقاب لباس بدوى لا يفرضه الإسلام يقينا، وليس فى منعه أى تقييد لحرية المرأة، بل استعادة لشخصيتها مما يفنى روحها ويطمس حضورها، بل إن الضرورات الأمنية والعملية تدعونا إلى توسيع نطاقه إلى كل المؤسسات المصرية.

اتخذ الرجل قراره بعزم، وصمد فى مواجهة الهجوم عليه قدر صلابته فى رفض العدوان الإخوانى على الدستور عبر نقاشات حامية الوطيس فى وقت كان كثيرون من ذوى الأصوات الزاعقة الآن أخذوا فى التكيف مع الواقع، وهو عزم لم أفهم سره إلا عندما استمعت إلى الرجل فى صالون الأهرام الثقافى قبل أشهر قليلة، وشاهدت عينيه تلمع وهو يتحدث عن الجامعة التى انتمى إليها بهيام من يتحدث عن محبوبة أخلص لها، فقلت فى نفسى هذا هو الطراز الذى تحتاج إليه مصر فى كل موقع، طراز من يؤمنون بوطنهم قدر إيمانهم بربهم. وعندما تشكلت الوزارة الأخيرة تداول الإعلام اسم الرجل وزيرا للتعليم العالى، وعندها انتابتنى الحيرة بين رغبتى فى تعميم تجربته الرائدة على منظومة التعليم والبحث العلمى، وبين استمراره فى الجامعة التى أنتمى إليها، وأحلم برؤيتها فى موقع الصدارة. لم يستوزر الرجل، فقلت الجامعة أولى به، حتى قرأت قبل أيام خبر رحيله عنها، حيث انتهت مدة ولايته، والمفترض قانونا أن يتقدم بأوراق ترشحه إلى لجنة أكاديمية تختار بينه وآخرين، وهو ما رفضه على ما يبدو.

يبدو الأمر غريبا، ففى وقت تعانى فيه مصر من غياب الكبار، ويتحدث كثيرون عن ندرة القيادات اللامعة، تفقد جامعتنا الأم فارسها، لأنه أراد أن يبقى نبيلا وعزيزا، فرفض أن يتقدم لخطبة سيدة كان قد تزوجها فعلا. المشكلة أن لجنة كهذه، مع احترامنا لها، لا يمكنها أن تختار أكثر من شخص تتوسم فيه، مجرد توسم، الرغبة فى الإصلاح، بينما يقف وراء د. نصار تجربة واقعية، وإصلاحا منجزا، فهل مثله بحاجة إلى اختبار؟. انسحب الرجل ضاربا المثل فى احترام النفس، مؤكدا أن الكبار يضيفون إلى مواقعهم ولا يأخذون منها. ولأننا نحتاج إلى براعة الرجل وإنجازه، فالسؤال الضرورى لمن بيده الأمر: لماذا لا يُستثنى الرجل من تلك الإجراءات الشكلية، لماذا لا نعتبر تجربته هى حافظة مستنداته، لماذا لا يتم تكليفه باستكمال مهمته تقديرا لدوره، وحرصا على جامعتنا التى قادت مسيرة تعقلنا ولا نزال نرجوها قاطرة لحركة نهوضنا؟.